جامعة الأزهر
كلية القرآن الكريم بطنطا

الصـــورةُ المَاثِلَةُ لِلْعِيَـــان
في البيـان القـرآني والبيـان النَّبَـوِيّ
دَراسةٌ بَلاغِيَّةٌ تَحلِيلِيَّةٌ

إعداد

د . أحمـد أحمـد على عطـوان

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بالقاهرة

١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م

الصورةُ المَاثِلَةُ لِلْعِيَانِ في البيان القُرآني والبَيانِ النَّبَوِيّ – دَراسةٌ بَلاغِيَّةٌ تَحلِيليَّةٌ

أحمد أحمد على عطوان

قسم البلاغة ، كلية اللغة العربية بالقاهرة ـ، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية .

الإيميل الجامعي : ahmed٥٩.el@azhar.edu.eg

ملخـص البحـث :

هذا بحث يتناول الصورة الماثلة للعِيان في البيان القرآني والبيان النبوي، يبرز قيمتها بلاغيـًا ويجليها ويبين المقامات التي ترد فيها، وأنواعها أداة فعلية تستخدم للجلاء والوضوح ثم يجلي أبرز النتائج التي توصل إليها البحث .

الكلمات المفتاحية : الصورة – الماثلة – العيان – المقام – التشبيه.

the visible image in the Qur'anic statement and the Prophet's statement Analytical rhetorical study

Ahmed Ahmed Ali Atwan

Rhetoric Department, Faculty of Arabic Language in Cairo, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.

Emaile : drelhodhod@yahoo.com

Abstract:

This research deals with the visible image in the Qur'anic statement and the Prophet's statement, highlights its value rhetorically and clarifies it and shows the denominators that appear in it, and its types are an actual tool used for clarity and clarity and then clarifies the most prominent results reached by the research.

key words:The image - the present - the eye - the place - the analogy.

المقدمـــــــــة

الحمد لله عزيزِ السلطان، قويِّ الأَرْكان، نَصَبَ دلائِلَ قدرته حتى أصبحت مَاثِلَةً للعِيَان، ثم الصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد وآله وأصحابه الأعيان .

ثم أما بعدُ ....

فهذا بحثٌ يتناول " الصورَة الماثِلَة للعِيَانِ" في البيان القرآني والبيان النبوي، قد جاء في مقدمة وتمهيد، ومطلبين وخاتمة

التمهيد يُبَيِّنُ المقْصودَ بالصورةِ الماثلةِ للعِيَانِ، ويتكلم عن التشبيه الضمني، لما قد جاء في كثير من الصور على مثاله .

المطلب الأول : في بحث الصورة الماثلة للعِيان في البيان القرآني .

المطلب الثاني: في بحث الصورة الماثلة للعِيَانِ في البيان النبوي

الخـــــاتمة: وفيها أبرز النتائج التي قد هُدِي إليها البحث .

هذا وقد اصطنع البحث المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي في تتبع وتحليل النماذج . والله الموفق

التمهـــــــيد

الصورة الماثلة للعيان – التشبيه الضمني

الصـورة الماثلـة (الشاخصـة) للعِيـان، صـورة في الواقـع، حسـية تشاهد بـالعين، يسـتخدمها المـتكلم في التعبير عمـا يريـد بيانـه، وهـذه الصورة وتوظيفهـا قديمـة جـدا في التـاريخ، عريقـة عراقـة الزمـان، تجـد ذلك في القرآن الكريم في قصة ابنى آدم، حينما بعـث رب العـزة سـبحانه وتعـالى غرابـا يبحـث في الأرض لكـي يُـرِيَ القاتـل كيـف يـواري سـوأة أخيه، وقـد تكلـم الإمـام عبـد القـاهر الجرجـاني (ت ٤٧١هـ) عـن هـذه الصـورة، وهـو بصـدد الحـديث عـن أسـباب تـأثير التمثيـل، وكيـف أن المشـاهدة تـؤثر في النفـوس مـع العلـم بصـدق الخيـر " فإنـا نعلـم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر"، كما أخبر الله تعالى عن إبـراهيم ـ عليـه الصـلاة والسـلام ـ في قولـه:﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[البقرة: ٢٦٠].

والشواهد في ذلك كثيرة، والأمر فيه ظاهر، ولولا أن الأمر كذلك، لما كان معنًى لنحو قول أبي تمام [من الطويل]:

وطُولُ مُقَامِ المَرْءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ لِدِيبَاجَتَيْهِ فاغْتَرِبْ تتجـــدَّدِ[1]

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ محبَّةً إلى النَّاس أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بَسرْمَدِ

---

(١) من قصيدة لأبي تمام في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الطائي مطلعها :

غَدَتْ تسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غَدِ وَعَـادَ قَتَـادًا عندَهَـا كُـلُّ مَرْقَـدِ

يُنْظَر: شرح ديوان أبي تمام ٢٩٤- حبيب بن أوس الطائي، محمد محيي الدين عبد الحميد – مكتبة محمد على صبيح – الطبعة الأولى : ١٩٦٧م .

وذلك أنَّ هذا التجدُّدَ لا معنى له، إذا كانت الرؤية لا تفيد أُنْسًا من حيث هي رؤيةٌ، وكان الأُنْس لَنْفِيها الشَّكَّ والرَّيب، أو لوقوع العلم بأمرٍ زائدٍ لم يُعْلَمْ من قبل . وإذا كان الأمر كذلك، فأنت إذا قلت للرجل : " أنت مُضيعٌ للحزم في سعيك، ومخطئٌ وجه الرشاد، وطالبٌ لما لا تناله " إذا كان الطلب على هذه الصفة ومن هذه الجهة، ثم عَقَّبْتَه بقولك : " وهل يحصل في كفِّ القابض على الماء شيء مما يقبض عليه؟ " فلو تركنا حديث تعريف المقدار في الشدة والمبالغة ونَفْي الفائدة من أصلها جانبا، بقي لنا ما تَقْتضيه الرُّؤيةُ للموصوف على ما وُصف عليه من الحالة المتجددة،مع العلم بصدق الصفة . يبين ذلك، أنه لو كان الرجل مثلا على طرفَ نَهَرٍ في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شيء، فأدخل يده في الماء، وقال : " انظر هل حصل في كفيّ من الماء شيء؟ فكذلك أنت في أمرك" = كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل . ولو أن رجلا أراد أن يضرب لك مثلا في تنافي الشيئين فقال : هذا وذاك هل يجتمعان ؟ " وأشار إلى ماء ونار حاضرين، وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول فقال : " هل يجتمع الماء والنار؟ " . وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك للنفس، والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب إذا كان مستفادة من العِيان، ومتصرَّفُه حيث تتصرف العينان = وإلا فلا حاجة بنا في معرفة أن الماء والنار لا يجتمعان إلى ما يؤكده من رجوع إلى مشاهدة واستيثاق تجربة "[1].

(١) أسرار البلاغة ١٢٦، الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ت ٤٧١هـ، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، ط١: دار المدني بجدة :١٩٩١م.

يعتذر البحث عن الإطالة في نقل هذا الموضع لحرصه على عدم اجتزاء كلام الشيخ لترابطه والتحام أوله بآخره، ولكن الشيخ يؤكد أن المشاهدة بالعين ورؤية الممثل به يكون له في تقرير المعنى وتأكيده ما لا يكون بمجرد القول دون الفعل . ولذلك وجدنا هذه الصورة كما سنعرض نماذجها في القرآن والسنة تكون حيث يكون المَقام يحتاج إلى قدر زائد من التأكيد والتثبيت.

التشبيه الضمني

فيما ورد من النماذج القرآنية أو النبوية بعض نماذج لم تأت على التشبيه الاصطلاحي، ولكن بعضها يأتي على صورة تُفْهَم التشبيهُ من فحواها وبعضها يأتي بأفعل التفضيل، وأفعل التفضيل ذكر السبكي (ت ٧٧٣هـ) في (عروس الأفراح) أن الطيبي قد نص على أنها من أدوات التشبيه وإن كان لم يرتض هذا القول، يقول السبكي : "السادس في تعداد صيغ التشبيه على ما ذكره المصنف من أن كل ما كان بمعنى " مثل " و " شبه" أداة تشبيه ..... وأشار الطيبي (ت ٧٤٣هـ)[1] إلى أن من أدوات التشبيه " أفعل التفضيل "، مثل : زيد أفضل من عمرو، وفيه بعد، وإن كان يشهد له ما سيأتي من كلام ابن الشجري (ت ٥٤٢هـ .....)[2]، وفي التشبيه القائم مبناه على

(١) راجعت التبيان عند حديثه عن الأداة / ٣٦٤ فلم أجد فيه ذلك: التبيان في البيان: الإمام الطيبي، تحقيق ودراسة عبد الستار حسين زموط، دار الجيل، بيروت، ط١: ١٩٩٦م .

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ٢ / ٧٤، أحمد بن على بن عبد الكافي، بهاء الدين السبكي ت ٧٧٣هـ المحقق د . عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان : ٢٠٠٣م.

استخدام " أفعل التفضيل " يقول الشيخ أبو موسى : " وهذا النوع من التشبيه الذي يكون فيه المشبه به متبوعًا بأمثال هذه الأحوال والأوصاف التي تصف صورة متكاملة الملامح، محددة السمات، يأتي في ضرب آخر من ضروب التشبيه، الذي يسميه البلاغيون : "التشبيه الضمني " وهو ما لا يكون التعبير فيه نَصًّا في التشبيه، وإنما بُمِيَتْ العبارة عليه، وطوته وراء صياغتها . فأنت تراه هناك مُضْمرًا مكتوما، كما تقول " هو أقطع من السيف" و " تلك المسألة أبين من الصبح " أو " هو أخو السيف " أو " قرين الأسد " أو " هو ضرة الشمس "، أو " يطلع بين عينيها البدر"، أو كما يقول الفرزدق :-

أبي أحمد الغيثين صعصعة الذي ∴ متى تخلف الجواز و الدلو يمطر[1]

.... وما شابه ذلك مما ترى العبارة فيه تطوى التشبيه في داخلها من غير أن تدعه بشكل صياغتها... وكذلك الفرزدق حين قال : " أبي أحمد الغيثين " يرتفع بالمعنى درجة فوق التشبيه، وكأن هدف العبارة ليس بيان أن أباه يشبه الغيث في وفرة العطاء، وإنما الغرض من الكلام أن يخبر عن فضل أبيه على الغيث "[2].

(١) من قصيدة له في معاقرة بني نهشل لجناب بن شريك بن همام بن صعصعة مطلعها
بني نهشل أبقوا عليكم ولم تروا ∴ سوابق حام للذمار مشهر
ديوان الفرزدق ٣٢٩، شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ على فاعور- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط١: ١٩٨٧م .

(٢) التصوير البياني ٧٤، ٧٥، دكتور محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية – ١٩٩٣م .

المطلب الأول
الصورة الماثلة في القرآن الكريم

١ - ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ :

قال الله عز وجل : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣] .

هذه الآية هي الآية الوحيدة التي جاء فيها التشبيه بالصورة الماثلة للعيان صريحا فقد ذكرت " الكاف " الدالة على التشبيه في قوله عز وجل ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

والحديث هنا من وجوه :

١ - سياق الآية. ٢ - المغزى من ترتيب قصة الآية.

٣- من بلاغة الآيتين. ٤ - تقرير التشبيه.

١- سياق الآية :

" قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد الصباح حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني، قال : كان رجل من بني اسرائيل عقيما، لا يُولَد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارِثَه فقتله، ثم احتمله ليلا، فوضعه على باب رَجُلٍ منهم، ثم أصبح يَدَّعِيه عليهم، حتى تسلَّحُوا وركب بعضُهم على بعض . فقال ذوو الرأي منهم والنُّهَى : علامَ يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فَأَتَوْا موسى ـ عليه السلام ـ فذكروا ذلك له . فقال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ قال : فلو لم يعترضوا لأَجْزَأَتْ عنهُم أدنى بقرة، ولكنهم شدَّدوا فَشُدِّدَ عليهم حتى انتَهوا إلي البقرة التي أُمِروا بذَبْحِها فوجدوها عند رجل ليس له بقرٌ غيرها، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا فأخذوها، فذبحوها فضربوه ببعضها، فقام فقالوا : مَنْ قَتَلك ؟ فقال : هذا – لابن أخيه، ثم مال ميتا، فلم يُعْطَ من ماله شيئا، فلم يُوَّرثْ قَاتِلٌ بَعْدُ "[1] .

٢- **ترتيب قصة الإحيـــاء، والمغزي من تأخيرها عن ذكرها أولا** هو تثنية التقريع: "فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها؟ وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ؟!، وأن يقال : ﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَ‍ٔۡتُمۡ فِيهَا ﴾، فقلنا : اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت : كل ما قصّ من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعا لهم عليها . ولما جدّد فيهم من الآيات العظام . وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض في تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٣٣ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ تحقيق مجموعة مكتبة الصفا – الطبعة الأولى ٢٠٠٤م .

اتحادهما بضمير البقرة، لا باسمها الصريح في قوله:﴿ ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ حتى يتبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع، وتثنيته بإخراج الثانية مُخْرَج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة "(١).

٣- **من بلاغة الآيتين :** ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ الخطاب لليهود والمعاصرين لرسول الله ﷺ وإسناد القتل والتدارؤ إليهم مجاز عقلي من نسبة جنايات الأسلاف إلى الأخلاف، والغرض التوبيخ والتقريع، وتخصيص هذين الأمرين وهما القتل والتدارؤ، دون ما مَرَّ من هناتهم لظهور قبح القتل وإسناده إلى الغير ظلما وافتراء، والمعنى : اذكروا وقت قتلكم نفسا محرمة فادارأتم فيها، أي تخاصمتم في شأنها، إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر، أو تدافعتم بأن طرح كُلٌّ واحد قتلها إلى آخر . ودلالة الجمع بين صيغتي الماضي والاستقبال في قوله عز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ هي الدلالة على الاستمرار.

وقوله عز وجل : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ ﴾ فيها التفات من الغيبة في قوله ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ إلى التكلم في قوله عز وجل : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ ﴾ وفائدة هذا الالتفات هو تربية المهابة في أنفس المخاطبين بهذا الخطاب .

وقوله عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ على إرادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام، أي : فضربوه فحيي وقلنا كذلك يحيى إلخ فحذفت الفاء الفصيحة في " فحيي " مع ما عطف بها، وما عطف هو عليه، لدلالة كذلك على ذلك . فالخطاب في كذلك

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل ١ / ١٦٦ محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ت ٥٣٨هـ المكتبة التوفيقية – الطبعة الأولى ٢٠١٢م .

حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل[١].

٤- **وفي تقرير هذا التشبيه**، لم أجد مَنْ نَصَّ على أنه من الأشياء المشاهدة بالعِيان سوى الإمام القَفَّال[٢] ﷺ فقال : " ظاهره يدل على أن الله تعالى قال هذا لبني إسرائيل، أي : إحياء الله الموتى يكون مثل هذا الذي شاهدتم؛ لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلا أنهم لم يؤمنوا به إلا من طريق الاستدلال، ولم يشاهدوا شيئا منه، فإذا شاهدوه اطمأنت قلوبهم، وانتفت عنهم الشبهة، فأحيا الله القتيل عِيانًا، ثم قال لهم : كذلك يحيى الله الموتى، أي : كما أحياها في الدنيا يحييها في الآخرة من غير احتياج إلى مادة، ومثال، وآلة، التي لا يخلو منها المستدل .[٣]

" لا شك أن إحياء القتيل أمام أعين بني إسرائيل لكي يشاهدوا كيفية الإحياء عيانا بيانا هو ما يلائم طبائعهم الغليظة، وقلوبهم القاسية التي لم تتأثر بكثرة ما رأت وعاينت من الآيات البينات على يد نبي الله سيدنا موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ولذلك لم تزدهم تلك الآيات إلا قسوة فقال عز وجل : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم١/ ١١٤ أبو السعود العمادي محمد بن محمد ت ٩٨٢هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) هو : محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر، أبو بكر الشاشي، القفال الفارقي في الملقب : فخر الإسلام، المستظهري، رئيس الشافعية بالعراق في عصره – ت ٥٠٧هـ الأعلام ٥/ ٣١٦ خير الدين الزركلي ت ١٣٩٦ هـ – دار العلم للملايين – ٢٢٠٢م .

(٣) اللباب في علوم الكتاب ٢/ ١٨١ – عمر بن على بن عادل ت ٧٧٥هـ – تحقيق عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الطبعة الأولى ١٩٩٨م .

مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فشبه المولى عز وجل تلك القلوب التي عاينت آية من آيات الله خارقة ولم تتأثر : " شبه القلوب في صلابتها وقسوتها وأنها لا ينفد إليها شيء من الخير والحق بالحجارة. والحجارة أوضح ما يصف الغفلة والجمود، فالتشبيه يفيد أن هذه القلوب لا تثمر الخير أبدا، لأنها ليست موضعا صالحا للإنبات، وقد عرفنا أن سياق الآيات يحكي قصة خارقة حدثت لبني إسرائيل هي قصة القتيل الذي أمرهم الله في شأنه أن يذبحوا بقرة وأن يضربوه ببعضها ليحيا ويخبرهم بقاتله، وقد كان كذلك وأراهم الله هذه الآية الناطقة بالحق المبين، وكان بعد ذلك أن قست قلوبهم ولذلك نجد الآية تعطف قسوة القلوب بـ " ثم " وهي لا تدل على التراخي الزمني، وإنما تدل على استبعاد وقوع القسوة بعد جلاء الآية ... والإشارة في قوله : ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ تعني من بعد هذا البرهان الذي كأنه شاخص يشار إليه"[1].

٢- ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ ﴾ :

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

١- سياق الآية :

(١) التصوير البياني ٢٧، ٢٨ بتصرف .

" اختلفوا في هذا المار : من هو فروى ابن أبى حاتم بسنده عن على بن أبي طالب أنه قال : هو عزيز . ورواه ابن جرير وهذا لقول هو المشهور، وقال وهب بن منبه وعبيد بن عمير : هو أرميا بن حلقيا ... وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بُخْتَنَصَّر لها وقتل أهلها " ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أي ليس فيها أحد من قولهم : خوت الدار تخوى خويا. وقوله ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها فوقف متفكرًا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ ﴾ وذلك لما رأي من دثورها وشدة خرابها، وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه" (١).

وقد أشار إلى ضرب المثل في هذه الآية وأنها تتضمن تشبيه حال إحياء الله سبحانه وتعالى الموتى بحال هذا المار في نفسه وفي حماره، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) قال : " ومعنى ذلك فيما ذكر لنا : أن قائله لما مرَّ ببيت المقدس أو بالموضع الذي ذكر الله أنه مر به = خرابا بعد ما عهده عامرًا قال : أَنَّى يحيي هذه الله بعد خرابها؟ وقال بعضهم : كان قيله ما قال من ذلك شكا في قدرة الله على إحيائه فأراه الله قدرته على ذلك بضربه المثل له في نفسه، ثم أراه الموضع الذي أنكر قدرته على عمارته وإحيائه، أَحْيَى ما رآه قبل خرابه، وأعمر ما كان قبل خرابه . وذلك أن قائل ذلك كان – فيما ذكر لنا – عهده عامرًا بأهله وسكانه، ثم رآه خاويا على عروشه قد باد أهله، وشتتهم القتل والسباء، فلم يبق منهم بذلك المكان أحد، وخربت منازلهم فلم يبق إلا الأثر . فلما رآه كذلك بعد الحال التي عهده عليها،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٣٦٦ .

قال : على أي وجه يُحيي هذه الله بعد خرابها فيعمرها، استنكارًا – فيما قاله بعض أهل التأويل – فأراه كيفية إحيائه ذلك بما ضربه له في نفسه، وفيما كان في إداوته وفي طعامه، ثم عرفه قدرته على ذلك وعلى غيره، بإظهاره على إحيائه ما كان عجبا عنده في قدرة الله إحياؤه رأي عينه حتى أبصره ببصره.

فلما رأى ذلك قال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

٢ـ من بلاغـــة الآية : الاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الغرض منه التلهف والتشوق إلى عمارة تلك القرية التي هي بيت المقدس، وهي على ما يرى من الحالة العجيبة المباينة للحياة، وقُدِّمَ المفعولُ " هذه " على الفاعل " الله " للاعتناء بها من حيث إن الاستبعاد ناشئ من جهتها، لا من جهة الفاعل، وقد استعار " الإحياء " للإعمار " إشارة " إلى استبعاد عمارتها بالبناء والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا أيدى سَبَأْ ومن غيرهم وإنما عبر بالإحياء الذي هو عَلَمٌ في البعد عن الوقوع عادة بغرض التهويل في الخطاب ولتأكيد استبعاد العمارة، كما أنه لأجله عَبَّر عن خَرَابها بالموت على طريق الاستعارة أيضا حيث قيل " بعد موتها " وحيث كان هذا التعبير مُعْرِبا عن استبعاد الإحياء بعد الموت على أبلغ وجه وآكده، ومن ثم فإن الله عز وجل أراه في نفسه، ثم في غيره، ثم أراه ما استبعده صريحا مبالغة في إزاحة ما عسى يختلج في خَلَده – إيثار التعبير بقوله عز وجل " ثم بعثه " على " أحياه " للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على البارئ تعالى،

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ٥ / ٤٤٦ محمد بن الطبري ت ٣١٠هـ حققه وعلق حواشيه محمود محمد شاكر – راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر – الطبعة الثانية – دار المعارف بالقاهرة .

كأنه بعثه من النوم؛ للإيذان بأنه أعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدًا للنظر والاستدلال .

وفي فصل قوله عز وجل "﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ " استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل : فماذا قال له بعد بعثه فقيل :﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ والغرض من هذا السؤال ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ إظهاره على عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة، ربما يتوهم أنه هين في الجملة، بل بعد مدة طويلة، وينحسم به مادة استبعاده بالمرة . ويطلع في تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى، وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرًا طويلا من غير تغير ما . " ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق أي فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتعاين ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل، ولنجعلك آية للناس الموجودين في هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية..." ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ ﴾ مع أن المراد عظام الحمار فقد كرر الأمر بالنظر لأن المأمور به أولا هو النظر إليها من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد، وثانيا هو النظر من حيث تعتريها الحياة ومباديها، أي : وانظر إلى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء في غيرك بعدما شاهدت نفسك [(١)] .

٣ ــ ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

(١) ينظر: إرشاد العقول ١ / ٢٥٣.

لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

١ـ سياق الآية :

" ذكروا لسؤال سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أسبابا منها : أنه لما قال لنمروذ ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أَحَبَّ أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ ﴾[(١)].

٢ـ الإشارة إلى التشبيه في الآية :

" حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : حدثنا ابن اسحاق، عن بعض أهل العلم : أن أهل الكتاب يذكرون أنه أخذ الأطيار الأربعة، ثم قطَّع كل طير بأربعة أجزاء، ثم عمد إلى أربعة أجبال فجعل على كل جبل ربعا من كل طائر . فكان على كل جبل ربع من الطاووس، وربع من الديك، وربع من الغراب، وربع من الحمام . ثم دعاهن فقال : " تعالين بإذن الله كما كنتُنّ "، فوثب كل ربع منها إلى صاحبه حتى اجتمعن، فكان كل طائر كما كان قبل أن يقطعه . ثم أقبلن إليه سعيا كما قال الله . وقيل : يا إبراهيم، هكذا يجمع الله العباد، ويحيي الموتى للبعث من مشارق الأرض ومغاربها وشامها ويمنها ! فأراه الله إحياء الموتى بقدرته حتى عرف ذلك، يعني : ما قال نمروذ من الكذب والباطل [(٢)].

– حدثني محمد بن عمرو، حدثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١ / ٣٦٧ .

(٢) جامع البيان ٥ / ٥٠٦.

ابن أبي نجيح، عن مجاهد : ﴿ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ﴾، قال : ثم بدَّدهن على كل جبل، يأتيك سعيا، وكذلك يحيى الله الموتى

حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال : حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد : ثم اجعلهن أجزاء على كل جبل، ثم ادعهن يأتينك سعيا، كذلك يحيى الله الموتى . هو مثل ضربه الله لإبراهيم .[١]

٣ـ من بلاغة الآية :

" رب " كلمة استعطاف قدمت بين يدي الدعاء مبالغة في استدعاء الإجابة " كيف تحيي الموتى " الاستفهام بـ " كيف " إنما هو سؤال عن حال شيء متقرر الوجود عند السائل والمسئول، فالاستفهام ههنا عن هيئة الإحياء المتقرر عند السائل أي : بَصّرني كيفية إحيائك للموتى، وإنما سأله عليه السلام ليتأيد إيقانه بالعيان، ويزداد قلبه اطمئنانا على اطمئنان، الاقتصار على حكاية أوامر الله عز وجل : " خذ ... صرهن ... اجعل ... ادعهن " من غير تعرض لما كان من امتثال سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرة الله عز وجل للإعلام بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلا .

(١) المصدر السابق ٥ / ٥٠٨ .

المطـــلب الثاني
الصورة الماثلة للعيان في البيان النبوي

أولا : التمثيل بالحيوان :

١- " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار "

حدثنا الحسن بن على، حدثنا عبد الرزاق، عن ابن جُرَبج، قال : أخبرني أبو الزُّبَيْر، أن عبد الرحمن بن الصامت، ابن عم أبي هريرة أخبره أنه سمع أبا هريرة، يقول جاء الأَسْلَمِيُّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِه أنه أَصَابَ امرأَةً حَرَامًا، أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذلك يُعْرِضُ عنه النبيُّ ﷺ فأَقْبَل في الخَامِسَةِ، فقال : " أَنِكْتَهَا ؟ " قال : نَعَمْ، قال : " حَتَّى غَابَ ذلك منك في ذلك منها ؟" قال : نَعَم، قال : " كما يَغيبُ المِرْوَدُ في المُكْحُلَةِ، والرِّشَاءُ في البِئْرِ؟ " قال : نَعَم، قال : فَهَل تَدْرِي ما الزِّنَا ؟ قال : نعم، أَتَيْتُ منها حَرامًا ما يَأْتِي الرَّجُلُ مِنَ امْرَأَتِه حَلالاً . قال : " فما تُرِيدُ بهذا القَوْلِ؟ " قال : أُرِيد أَنْ تُطَهِّرَنِي، فَأَمَر به فَرُجِمَ . فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلَيْنِ من أصحابه يقُولُ أحدُهما لصاحِبِه : انظُرْ إلى هذا الذي سَتَر اللهُ عليه، فَلم تَدَعْهُ نفسُه حتى رُجِمَ رَجْمَ الكلب . فَسَكَتَ عنهما، ثم سَارَ سَاعَةً، حتى مَرَّ بِجِيفَةِ حِمَارٍ شائِلٍ بِرِجْلِهِ، فقال

: " أين فلانٌ وفلانٌ ؟ " فقالا : نحن ذَانِ يا رسول الله، قال : انْزِلَا فَكُلَا مِنْ جِيفَةِ هذا الحِمارِ" فقالا : يَا نَبِيَّ اللهِ، مَنْ يَأْكُلُ مِنْ هُذَا ؟ قال : " فَما نِلْتُمَا مِنْ عِرْضِ أَخِيكُما آنِفًا أَشَدُّ مِنْ أَكْلٍ مِنْهُ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنَّةِ يَنْقَمِسُ فِيهَا "[(١)].

السياق : الذب عن عِرْضِ المُسْلِم :

هذا رجل أخطأ فأصاب حدا من حدود الله، ولكنه لخوفه من الله لم تدعه نفسه حتى جاء بها، وجاد بها، خوفا من الله، وأداء لحق الله . فما كان له أن يُعْتَدى عَلى عِرْضِه بعد أن جاد بنفسه لله . ولذلك كان البيان النبوي فيه من الزجر والتوبيخ ما يعيد إليه حقه .

الشاهد في قوله ﷺ :

" ثم سَارَ سَاعَةً، حتى مَرَّ بِجِيفَةِ حِمَارٍ شائِلٍ بِرِجْلِهِ [(٢)]، فقال : " أَيْنَ فُلانٌ وفُلانٌ ؟ " فقالا : نحن ذَانِ يا رسول الله، فقال : انْزِلَا فَكُلَا مِنْ جِيفَةِ هذا الحِمارِ؛ فقالا : يَا نَبِيَّ اللهِ، مَنْ يَأْكُلُ مِنْ هُذَا ؟ قال : " فَما نِلْتُمَا مِنْ عِرْضِ أَخِيكُما آنِفًا أَشَدُّ مِنْ أَكْلٍ مِنْهُ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنَّةِ ينغمس[يَنْقَمِسُ] فِيهَا .

سمع رسول الله ﷺ هذين الرجلين من أصحابه يقول أحدهما

---

(١) سنن أبي داود ٤ / ١٤٨ (كتاب الحدود – باب رجم ماعز بن مالك) حديث رقم (٤٤٢٨).

(٢) " شائل برجله" الباء للتعدية، أي رافع رجله من شدة الانتفاخ ... شالت الناقة بذنبها شولا، وشولانا وأشالته رفعته فشال الذنب نفسه، لازم متعد .... ومعنى " نال من عرضه "أي سَبَّه، وينغمس أو ينقمس معناه ينغمس، ويغوص فيها ... قمسه في الماء فانقمس أي غمسه وغطه ١٠هـ عون المعبود ١٢/ ١١١ محمد شمس الحق العظيم آبادي – تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان – المكتبة السلفية ط٢: ١٩٦٩م .

لصحابه : انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رَجْمَ الكلب، اغتابا الرجل ولم يتورعا عن تشبيهه بالكلب، مع حرمة ذلك عليهما، فسكت عنهما ﷺ حتى مَرَّ بمنظر مُنَفِّرٍ بَشِعٍ فِي شَكْلِهِ وَرَائِحَتِه، وهنا تُوانِي الفرصةُ لكي يلقنهما هما ومن على شاكلتهما ممن يجترى على أعراض المسلمين، ثم يسأل رسول الله ﷺ : أين فلان وفلان ؟ وبعد أن أجابا، أمرهما سيدنا رسول الله ﷺ :(انْزِلَا فَكُلَا مِنْ جِيفَةِ هذا الحِمارِ؟) هذا أمر غريب عجيب يشاكل موقفهما، لا يُريدُ منه ﷺ حقيقة الأمر، وإنما الغرض بعد التنبيه والإيقاظ الزجر والتوبيخ والإهانة، ومن ثم فقد كان جوابهما مليئا بالاستغراب والتعجب: من يأكل من هذا ؟ الاستفهام الغرض منه الإنكار، يعنيان أن هذا الجيفة لا يأكل أحد منها مُخْتَارًا، أبداً فكيف نأكل منها، وهنا يأتي خطاب الصورة الماثلة للعيان مشبها بها رسول الله ﷺ ما نالاه من عرض أخيهما : " فَما نِلْتُمَا مِنْ عِرْضِ أَخِيكُما آنِفًا أَشَدُّ مِنْ أَكْلٍ مِنْهُ " الغرض تشبيه ما نالاه من عرض الأسلمى بالأكل من هذه الجيفة المنتنة بل هو أشد من الأكل منها، والوجه هو البشاعة والفظاعة والنفرة؛ وإنما كان الأكل أشد في الفظاعة والقبح؛ لأن الإنسان قد يأكل مُضْطرًا من مثل هذه الجيفة، على أنه لا يُسْمَحُ له بحال أن ينال من عرض أخيه المسلم حَيًّا، فكيف به وهو يغتابه بعد أن مات، ولا يستطيع التحلل من غيبته. وقد يُلْحَظ تأثر رسول الله ﷺ في هذا التشبيه بمثيله القرآني في سورة الحجرات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢]، على أن التشبيه هنا بصورة حاضرة مع أن التشبيه فيه

بعض اللفتات البلاغية الحسنة كمثل الإضافة في " أخيكما " وفيه إبلام بأن المغتاب أخوهما، ثم التنكير في " أكل " الغرض التبشيع والتفظيع.

٢- " تمثيل حقارة الدنيا "

حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدثنا سليمان يعني ابن بلاب، عن جعفر، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ : مَرَّ بالسُّوقِ، داخلا من بَعْضِ العَالِيَةِ، والنَّاسُ كَنَفَتَه، فَمَرَّ بَجْدِي أَسَكّ[1] مَيتٍ، فَتَنَاوَلَه، فَأَخَذَ بأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: " أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَه بِدِرْهَم؟ " فَقَالُوا : مَا نُحِبَّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِه؟ قَالَ : أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟ " قَالُوا : وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فكَيْفَ وَهُوَ مَيتٌ ؟ فقال : " فواللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكَمْ...

رواية ثانية : " فَلَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ هَذا السَّكَكُ بِه عَيْبًا [2].

سياق الحديث :

موطن الحديث السوق، والسوق مظنَّةُ الغفلة، والانشغال بأمور البيع والشراء، مع الانهماك في ذلك، مما يؤدي إلى الغفلة عن ذكر الله وأمور الآخرة ،ولذلك فإن مَنْ يُخَاطِبُ مَنْ في السوق يحتاج إلى أن يكون بيانه مؤثرًا موقظا لمن في هذا الموطن في هذه الغفلة، ومن ثَمَّ

(١) قوله : " والناس كنفته " وفي بعض النسخ : " كنفيته " معنى الأول : جانبه، والثاني جانبيه " وفي النهاية أنهما بمعنى . " بجدي " : هو الذكر من أولاد المعز، والأنثى : عناق، والجمع أجد وجداء، وقوله : " أسك " أي مصطلم الأذنين مقطوعهما ١٠هـ النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٨٤ مجد الدين المبارك بن محمد ابن الأثير ت ٦٠٦هـ - تحقيق طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحى – المكتبة العلمية – بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) صحيح مسلم ٤ / ٢٢٧٢(حديث رقم ٢٩٥٧) كتاب الزهد والرقائق .

افتتح النبي ﷺ بيانه الشريف بهذا الاستفهام " أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَه بِدِرْهَمٍ؟ " هذا مع تناوله للجدى الأسك الميت آخذًا بأذنه، والأخذ بها لبيان مزيد الحقارة، والاستفهام المقصود منه الإرشاد والتنبيه ليُلْقُوا السمع لما يُوَجِّهُهُ ﷺ إليهم من الخطاب الخطير في ضمن هذا التمثيل بهذا المعنى الحقير، ولذلك كان جوابهم رضي الله عنهم مُتَأَثِّرًا بهذا الأسلوب فقالو : ما نُحِبُّ أَنَّهُ لَنا بِشَيْءٍ " يَعْنُونَ أن هذا الجدى لا يُقَدَّرُ بأي شيء من الأشياء التي هي أقل من الدرهم فضلا عنه؛ وما يصنعون به، وهو نجس لموته، قد انقطعت الأطماع بذلك عن الانتفاع به . ومن ثم فإنه ﷺ قال يؤكد المقام : " أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ" يعني ﷺ أتحبون أنه لكم من غير شيء، فكان جوابهم " وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فكَيْفَ وَهُوَ مَيتٌ ؟! لا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم قد بلغوا من المقام ذُرْوَتَه في الاستجابة لهذا العرض المُؤَثِّرِ، ومن ثَمَّ فقد جاء بيانهم مؤكدًا بالقسم " والله " على أن هذا الجدى لو كان حيا، كان هذا العيب في أذنيه يجعله عيبا، فجعلوا الجدى ذاته عيبا، على سبيل المبالغة، يعنون أنه لكمال قيام العيب به، ولصوقه صار كأنه عيب . وهنا قد وصل الأمر إلى غايته في الاستجابة لما يريده ﷺ من لفت انتباههم وتحذيرهم من الدنيا، التي يمارسون أمورها الآن فقال ﷺ :

الشـــاهد : " فواللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكَمْ " فقد شبه ﷺ حال الدنيا وهوانها على الله، ومدى حقارتها في جنب الآخرة بحال هذا الجدى الصغير المعيب : عيب خِلْقي في أذنه، الميت، المُلْقَى، من هوانه، لا يُلْتَفَتُ ‘ليه، وقد صُدِّر البيان النبوي باللام المؤكدة مع القسم، وقوله " أهون " أفعل من الهُون بضم الهاء وسكون الواو،

بمعنى الذل والحقارة، والمعنى أن الدنيا عند الله أذل وأحقر من هذا عندكم . فكلمة " على " في قوله" عليكم " بمعنى " عندي "[(١)].

رأينا كيف تدرج الخطاب النبوي من التنبيه والإيقاظ إلى الإثارة للمخاطب، حتى تيقظ، وانتبه وتأثر، وتجاوب وقد ظهر ذلك في كلام الصحابة وأسلوب ردهم، وبعد أن تهيؤوا جاء الخطاب بهذه الصورة الماثلة للعيان التي حركت مشاعرهم وأثارتهم، وأرتهم مقدار حقارة الدنيا، وهوانها بهذه الصورة التي رأوها بأعينهم في صورة هذا الجدى الأسك الميت .

صورة من الإيجاز

٣- " فافعلوا به مثل هذا "

حدثنا مُسدَّدٌ، حدثنا أبو الأحوص، حدثنا سعيد بن مسروق، عن عَبَايَةَ بن رفاعة عن أبيه عن جده رافع بن خَديجٍ، قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله، إنا نَلْقَى العدو غدا، وليس معنا مُدًى أفنذبح بالمَرْوَةِ وشِقَّةِ العصا؟ فقال رسول الله ﷺ: " أَرِنْ – أو أَعْجِلْ " ما أَنْهَرَ الدمَ، وذُكِرَ اسمُ الله عليه، فكلوا ما لم يكن سِنٌّ أو ظُفْرًا، وسأحدثكم عن ذلك، أما السنُّ : فَعَظْمٌ، وأما الظُّفْرُ فمُدَى الحَبَشَةِ . وتقدم به سَرْعَانٌ من الناس فتعَّجلُوا فأصابوا من الغنائم، ورسول الله ﷺ في آخر الناس، فنصبوا قدورًا، فمر رسول الله ﷺ بالقدور فَأَمَر بها فَأُكْفِئَتْ، وقَسَم بينهم فَعَدَلَ بعيرا بعَشْرِ شِيَاهٍ، وَنَدَّ

(١) يُنْظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٤ / ٣٨٩ محمد علي بن محمد بن علان الصديقي ت ١٠٥٧هـ - تحقيق : خليل مأمون شيحا – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان – الطبعة الرابعة ٢٠٠٤م .

بَعِيرٌ[1] من إبلِ القَوْمِ، ولم يكن معهم خَيْلٌ، فرماه رجل بسهم، فَحَبَسَهُ اللهُ، فقال النبي ﷺ : " إنَّ لهذهِ البهائِمِ أَوَابِدَ كأَوَابِدِ الوحْشِ، فما فعل منها هَذَا، فافعَلُوا به مِثْلَ هَذَا "[2].

الشـــاهد في الحديث من أول قول الصاحبي : " وَنَدَّ بَعِيرٌ من إبلِ القَوْمِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ خَيْلٌ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ بسَهْمٍ، فَحَبَسَهُ اللهُ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ : " إِنَّ لِهذهِ البَهَائِمِ أَوَابِدَ كأَوَابِدِ الوَحْشِ، فَمَا فَعَلَ مِنْهَا هَذَا، فَافْعَلُوا بِهِ مِثْلَ هَذَا " هذا بعير شرد، ونفر ولم يكن معهم خيل حتى يتمكنوا من الإحاطة بالبعير، ورده، فرما رجل بسهم فأصابه فوقف، أو كما قال : فحبسه الله بإصابته بالسهم، فأراد أن يشرع لهم ﷺ وأفهمهم قائلا إن لهذه البهائم يعني من هذه البهائم ما هو متوحش، نافر، لا يألف، فإذا كنتم في مثل هذا الموقف ففعل بعير مثل هذا ونفر، ولم يكن معكم ما تدركونه به فارموه بسهم وأوقفوه، ولكنه ﷺ أوجز الكلام بأن أشار إلى شرود البعير النافر بقوله : " فما فعل منها هذا " وأشار إلى ما يجب أن يفعل به وهو رميه بسهم فأشار إلى ذلك بقوله : " فافعلوا به مثل هذا " والغرض من هذا التشبيه الإيجاز وإحكام الكلام . وليس وراء ذلك شيءمن إرادة التأثير كما هو في التمثيل بالصورة الماثلة للعِيان، ولكنه تمثيل بصورة أدركتها أعينهم.

٤- "أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها" ؟!

٣٠٨٩- حدثنا عبد الله بن محمد النَّفَيْلِيُّ، حدثنا محمد بن

(١) قوله " وتَدَّ" أي شرد وفر، وقوله " أوابد " جمع آبدة، وهي التي توحشت ونفرت، والمراد أن لها توحشا ومعنى " كأوابد الوحش " أي حيوان البر . ١هـ عود المعبود ٨/ ٢٠ .

(٢) سنن أبي داود ٣ / ١٠٢- كتاب الصيد – باب في الذبيحة بالمروة .

سلمة، عن محمد بن إسحاق، قال حدثني رجل من أهل الشام، يقال له : أبو مَنْظُور، عن عمه، قال : حدثني عمي، عن عامر الرَّام، أَخِي الخُضْرِ – قال أبو داود : قال النفيلي: هو الخَضِر، ولكن كذا قال – قال : إِنِّي لببلادِنا إذ رُفعت لنا رَاياتٌ وألويةٌ، فقلت : ما هذا؟ قالوا : هذا لواءُ رسول الله ﷺ فأتيْتُه وهو تحت شجرة قد بُسِطَ له كِسَاءٌ، وهو جَالِسٌ عليه، وقد اجتمع إليه أصحابُه، فجلستُ إِليهمْ، فذكر رسول الله ﷺ الأسْقَامَ، فقال : إِنَّ المؤمنَ إذا أصابه السَّقَمُ، ثم أعفاه الله منه، كان كفارةً لما مضى من ذنوبه، وموعظةً له فيما يَسْتَقْبِلُ، وَإِنَّ المنافِقَ إِذَا مَرِضَ ثم أُعْفِيَ كانَ كالبَعيرِ، عَقَلَهُ أهلُه، ثم أرسلوه. فلم يَدْرِ لِمَ عَقَلُوه، ولم يدر لمَ أرسَلُوه. فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله، وما الأسقام؟ والله ما مَرِضْتُ قَطُّ؟! فقال رسول الله ﷺ : قم عنا، فلست منا" فبينا نحن عنده إذ أقبل رجلٌ عليه كساءٌ، وفي يده شيء قد التَفَّ عليه، فقال : يا رسول الله، إِنِّي لما رأيتك أقبلتُ إليك فمررت بغيضةِ شجرٍ، فسمعت فيها أصواتَ فراخِ طائرٍ، فأخذتُهن فوضعتُهن في كسائي فجاءت أُمُّهنَّ فاستدارت عَلَى رَأْسِي، فَكَشَفْتُ لَهَا عَنْهنَّ، فَوَقَعَتْ عَلَيْهِنَّ، معهن، فلففتهُن بكسائي، فَهُنَّ أُولَاءِ مَعِي، قال : " ضَعْهُنَّ عَنْكَ" فوضعتُهُنَّ، وَأَبَتْ أُمُّهُنَّ إِلَّا لَزومَهُنَّ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: " أَتَعْجَبُونَ لرُحْمِ أُمِّ الأفراخِ فِرَاخَهَا ؟! " [(١)] قَالُوا : نَعَمْ، يَا رَسُولَ الله ﷺ قال : " فو الذي بَعَثَنِي بالحَقِّ، للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أُمِّ الأَفْرَاخِ بِفِرَاخِهَا . ارْجِعْ بِهِنَّ حَتَّى تَضَعَهُنَّ من حَيْثُ أَخَذْتَهُنَّ

(١) قوله " بغيضه شجر " أي بمجمع شجر، والغيضة الأجمة وهي الشجر الملتف، وجمعه غياض . " لرُحْم " الرُّحْم بالضم والرُّحُم بضمتين: التعطف ١ هـ عون المعبود ٨/ ٣٥٢.

وَأُمُّهُنَّ مَعَهُنَّ" فَرَجَعَ بِهِنَّ (١).

الشـــاهد في قوله ﷺ : " أَتَعْجَبُونَ لرُحْمِ أُمِّ الأفراخِ فِرَاخَهَا ؟! " قَالُوا : نَعَمْ، يَا رَسُولَ الله ﷺ قال : " فو الذي بَعَثَنِي بالحَقِّ، للهُ أَرْحَمُ بعِبَادِهِ مِنْ أُمِّ الأَفْرَاخِ بِفِرَاخِهَا . ارْجِعْ بِهِنَّ حَتَّى تَضَعَهُنَّ من حَيْثُ أَخَذْتَهُنَّ وَأُمُّهُنَّ مَعَهُنَّ" فَرَجَعَ بِهِنَّ "

الســـياق : الرجوع من الحرب والقتال والعنف وإراقة الدماء يشير إلى ذلك قول عامر الرامى في أول الخبر : إني لببلادنا إذ رفعت لنا رايات وألوية " والألوية جمع لواء، ولواء الجيش علمه وهو دون الراية . وقد أُمِر النبي ﷺ ومن اتبعه بقول الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم : ٩] الحرب والقتال مقام الغلظة والعنف، ومنافاة الرقة والرحمة، ولكن آن لمن آب من حربه وجهاده أن يعود إلى الرقة والرحمة ومعالجة ما يحنن القلب، ولذلك، فإن مقامات التمثيل بالصورة المرققة كهذه الصورة يكون في مقام مثل هذا المقام وهو مقام الشدة والعنف، وها هي ذي أم الأفراخ من رحمتها لفراخها لم تتركهن وأبت إلا لزومهن مع أن ذلك مدعاة لهلكتها وأخذها معهن، وبعد ذلك بعد أن كشف لها مَنْ أخذهن عنهن وقعت عليهن، ابتهل رسول الله ﷺ هذه الفرصة فقال للصحابة مقررًا لهم ما بهمّ تَعَجُبٍ من رحمة هذه الأم لفراخها، وفيه مع ذلك إيقاظ وتنبيه ولفت لهم إلى ما بعد ذلك : " أَتَعْجَبُونَ لرُحْمِ أُمِّ الأفراخِ فِرَاخَهَا ؟! " قَالُوا : نَعَمْ، ، وهنا صار المخاطب في غاية التيقظ والانتباه: قال : " فو

(١) سنن أبي داود ٣ / ١٨٢ - كتاب الجنائز – باب الأمراض المكفرة للذنوب .

الذي بَعَثَنِي بالحَقِّ، للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أُمِّ الأَفْرَاخِ بِفِرَاخِهَا" .

رحمة الله سبحانه وتعالى صفة تليق بذاته كما ينبغي له – عز وجل – وهي في حق الآدمي رقة في القلب تقتضي التفضل والإنعام وأما في حق المولى – عز وجل – فالمراد بها غايتها وما تقتضيه من الإنعام، يعني تطلق الرحمة والمراد بها لازمها أو ما يتسبب عنها، والمراد تشبيه رحمة الله هذه وجل برحمة هذا الطير لأفراخه على سبيل التقريب والتمثيل وإلا فلا مناسبة بين صفات الخلق وصفات الخالق – عز وجل – المهم هو تصوير وتقريب رحمة الله بصورة مرئية مشاهدة ترقيقا للقلب وتذكيرًا برحمة الله سبحانه وتعالى .

(٥) : "أَتَرَوْنَ هَذِهِ المرأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ" ؟

حدثني الحسن بن على الحلوانى، ومحمد بن سهل التميمي – واللفظ لحسن – حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا أبو غسان، حدثني زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، أنه قال : قُدِمَ عَلَى رسولِ الله ﷺ بسَبْيٍ، فَإِذَا امرَأَةٌ من السَّبْيِ تَبْتَغِي[1]، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا في السبى، أَخَذتْهُ فأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، وأَرْضَعتْهُ. فَقَال لنا رسولُ الله ﷺ : أَتَرَوْن هَذِهِ المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ " قُلْنَا : لَا، وَاللهِ، وَهِيَ تَقْدِرُ على أَنْ لَا

(١) قوله " تبتغي " من الابتغاء وهو الطلب، وفي البخاري : " تسعى " من السعي ، وكلاهما صواب، فهي ساعية وطالبة لابنها . " إذا وجدت صبيا في السبى أخذته " أي فأرضعته ليخف عنها اللبن ؛ لكونها تضررت باجتماعه . " أَتَرَوْنَ " أي : أتظنون أ هـ إرشاد السارى ٩ / ١٩ – أحمد بن محمد القسطلاني ت ٩٢٣هـ – المطبعة الكبرى الأميرية، مصر – الطبعة السابعة ١٣٢٣هـ .

تَطْرَحَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هُذِهِ بِوَلَدِهَا "[1].

الشاهد في قوله ﷺ : " لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هُذِهِ بِوَلَدِهَا .

السياق : هذه المرأة فقدت ولدها في السبى، فهي تسعى للبحث عنه وهي متلهفة عليه، يتفطر قلبها حزنا عليه، وهي في " سعيها " للبحث عنه من شدة رحمتها بولدها إذا وجدت صبيا، في مثل عمر ولدها أخذته وألصقته ببطنها رحمة به، وحبا، وحنانا، وقد ورد في رواية البزاز : " كلما، أو إذا وجدت صبيا في السبى، أخذته، فألصقته ببطنها، وأرضعته[2]" يعني أنها تفعل هذا بأي ولد تراه في السبى . هي صورة معبرة عن مدى رحمة هذه الأم بولدها، التي فاضت رحمتها حتى أصابت كل صبى تقابله في السبى، فنفعل به ما تفعله بولدها، لو وجدته . كان هذا بمرأى من صحابة رسول الله ﷺ وهنا يبدأ رسول الله ﷺ خطابه للصحابة وابتدرهم بهذا السؤال : " أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار " سؤال فيه استبعاد لفحواه كيف يمكن لأم بهذه الرحمة أن تطرح ولدها في النار؟ ولذا كان جوابهم النفي المؤكد بالقسم " لا والله "، مع الاحتياط الحذر: " وهي تقدر على أن تطرحه " يعنون أنها لا تفعل ذلك مختارة أبدًا " لكنها يمكن أن تفعله مُكرهة، وهنا يأتي سيدنا رسول الله ﷺ مستثيرًا رحمة قلوبهم ولينها بالإشارة إلى رحمة الله سبحانه وتعالى، مشبها رحمة الله – عز وجل – بهذه الصورة المرئية التي تجسد الرحمة في أسمى معانيها " لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ

---

(١) صحيح مسلم – كتاب التوبة – باب في سعة رحمة الله ٤ / ٢١٠٩ رقم ٢٧٥٤ .

(٢) مسند البزار (البحر الزخار) ١ / ٤١١ : أبو بكر أحمد بن عمرو البزار ت ٢٩٢هـ تحقيق د. محفوظ الرحمن زبين الله – مؤسسة علوم القرآن – مكتبة العلوم والحكم – بيروت – المدينة (١٤٠٩هـ).

مِنْ هُذِهِ بِوَلَدِهَا " ويأتي بيانه ﷺ مؤكدًا استجابة للتأثر بهذه الصورة المشخصة للرحمة، يقرب بها رحمة الرحمن الرحيم التي لا يمكن أن يتصورها عقل وما هذه الصورة إلا للتقريب والتمثل بما تدركه العقول لما لا يمكن أن تقرب منه أو تحوم حوله، وما المشاركة إلا في الاسم فقط.

(٦) : أَتُرَوْنَ هَذِه تَرْحَمُ صبِيَّهَا

حدثنا يحيى : حدثنا أبو عمار الحسين بن حُرَيثٍ يعني : المروزيَّ حدثنا الفضلُ بنُ موسى، عن الأعمش، عن أنس قال : أَتَى رسولُ الله ﷺ قَوْمًا يَعودُهم، فإذَا امرأَةٌ تَنسجُ بُرْدَةً لها، وعندهَا صبيٌّ، فأحيانًا تَضْرِبُ بحَفِّها[1]، وأحيانًا تُقْبِلُ على صبِّيها، ففعلت ذلك مِرارًا، فقال رسول الله ﷺ : " أترونَ هذه ترحَمُ صبيَّها؟ " قالوا : نعم . قال : فاللهُ تعالى أَرْحَمُ من هذه بصبيِّها "[2].

السياق : هو عيادة المريض، والمرض في الغالب مَظِنَّةُ الإقبال على الآخرة والموت، ومن يقبل على الموت يحتاج إلى حسن الظن بالله سبحانه وتعالى وحسن الظن يقتضي تغليب الرجاء على الخوف،

---

(١) قوله : " بِحَفِّها " الحَفَّةُ : المِنْوال، وهو الذي يُلَفُّ عليه الثوب، والذي يقال له : الحَفُّ هو المَنْسَج، قاله الأصمعي، قال أبو سعيد : الحَفَّةُ: المِنْوَال، ولا يُقَال له : حَفٌّ، وإنما الحَفُّ المِنْسَجُ، كما في الصحاح والعباب وفي اللسان : حَفَّةُ الحائك : خَشَبَتُه العريضة، يُنَسِّقُ بها اللُّحْمَةَ بين السَّدَى .. والحَفُّ : القَصَبَةُ التي تَجِئُ وتَذْهَبُ .. ١هـ تاج العروس من جواهر القاموس (حفف) ٢٣/ ١٤٨ – محمد بن محمد، مرتضى الزبيدى ت ١٢٠٥هـ المحقق : مجموعة من المحققين – دار الهداية .

(٢) المُخَلِصِيَّاتُ ٢ / ١٧٣ : أبو طاهر، المخلص محمد بن عبد الرحمن البغدادي الذهبي ت٣٩٣هـ تحقيق : نبيل سعد الدين جرا – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – قطر – الطبعة الأولى ٢٠٠٨م .

ورجاء رحمة الله يستدعي الحديث عن رحمة الله .

الشـــاهد : في قوله ﷺ : " أَتَرَوْنَ هذه تَرْحَمُ صَبِيَّها؟ " قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : فَاللهُ تَعَالى أَرْحَمُ مِنْ هٰذِه بصَبِيِّهَا "

الملاحظ أن نبرة الكلام في هذا السياق أخف من سياق الحديث عن الرحمة فيما سبق من حديث المرأة في السبى، لأنه ﷺ قال: أتظنون هذه المرأة ترحم صبيها وهناك قال : أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ هنا مجرد توقع الرحمة من هذه لصبيها، وهذا يتلاءم مع مقام خال من العنف والشدة الناتجين عن ممارسة الحرب، وإنما المقام مقام استدعاء الرحمة لتحسين الظن بالله سبحانه وتعالى للتعلق بالرجاء لمن يُتَوَقَّعُ له الإقبال على الله بالموت، ولذلك فإن سيدنا رسول الله ﷺ صَوَّرَ رحمة الله سبحانه وتعالى بصورة هذه المرأة التي تتعلق بصبيها هذا التعلق، فهي لا تصبر عنه، فما إن تُقْبِل على حَفِّهَا مَرَّةً إلا وتُدْبِرُ على صبيها، تَشُمُّه، وتقبله، وتداعبه، وتراعيه، ولا تنشغل عنه، ولو بالعمل الذي في يدها . تَعَلُّقٌ يَدُلَّ على فَرْطِ المَحَبَّةِ والرَّحْمَةِ. وهنا يُدْخِلُ سَيِّدُنَا رسول الله ﷺ بَوَارِقَ الْأَمَل وَحُسنَ الظَّنِ في رحمة بأن يَلْفِتَ مَنْ يَعُودُهم إلى مدى رحمة هذه المرأة صبيها ويذكرهم بذلك مدى رحمة الله – عز وجل – .

(٧) : " مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ الله إِلَّا ..... "

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، قال : أخبرني سعيد بن جُبير، قال : قلت لابن عباس : إن نوفا البَكَالِيَّ يزعُم : أن موسى صاحب الخَضِر ليس هو موسى بنى إسرائيل، إنما هو موسى آخر، فقال : كذب عدو الله، حدثنا أُبَيُّ بُن كعب، عن النبي ﷺ : " أن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فَسُئِل : أَيُّ النَّاسِ أعلَمُ؟

فقال : أنا، فَعَتَبَ الله عليه؛ إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فقال له : بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك قال : أَيْ رَبِّ وَمنْ لي بِه؟ - وربما قال سفيان أَيْ رَبَ، وكيفَ لي به؟ - قال : تأخُذُ حُوتا، فتجعَلُهُ في مِكْتَلٍ .. ثم ذكر قصة سيدنا موسى والخضر وفيها : فانطلقا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِما سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُم أن يَحْمِلُوهُم، فَعَرفَوا الخَضِرَ فحَمَلُوْه بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلمَّا رَكبَا في السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَع عَلى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَر في البحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْن، قال له الخَضِرُ: يا موسى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكُ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ ما نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنقَارِهِ مِنَ البَحْرِ، إِذْ أَخَذَ الفَأْسَ فَنَزَعَ لَوْحًا ... " الحديث (١)

الشـــاهد في قوله ﷺ : " مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكُ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ ما نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنقَارِهِ مِنَ البَحْرِ" الحديث يصور مدى سعة علم الله- عز وجل- بالإضافة إلى علم سيدنا موسى والخضر عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، ولبيان تلك الحقارة في جانب البشر ذُكِرَ تَفَاصِيلُ الصورة – الآخذ من هذا البحر الواسع المحيط عصفور، وهذا العصفور نقر بمنقاره الصغير نَغْبَةً صغيرة. وكل هذا على سبيل التقريب والتمثيل، وإلا فقد " قال العلماء : لفظ النقص هنا : " مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكُ مِنْ عِلْمِ اللهِ ... " ليس على ظاهره؛ وإنما معناه : أن علمي وعلمك بالنسبة إلي علم الله تعالى كنسبة ما نقره هذا العصفور إلى ماء البحر، هذا على التقريب إلى الأفهام، وإلا فنسبة

(١) صحيح البخاري ٤ / ١٥٤ – كتاب أحاديث الأنبياء – باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام . وقد أورده البخاري في كتب : العلم وتفسير القرآن (مرتين).

علمهما أقل وأحقر..."[1]

(٨) :" لَا يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمكُمْ مِثْلُ هَذَا"

حدثنا الوليد بن عُتْبَةَ، قال : حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن العلاء، أنه سمع أبا سَلاَّم الأَسْوَدَ، قال سمعت عمرو بن عَبَسَةَ، قَالَ : صَلَّى بِنَا رسولُ الله ﷺ إِلَى بَعِيرٍ مِنَ المَغْنَم، فَلَّما سَلَّمَ أَخَذَ وَبَرَةً [2] مِنْ جَنْبِ البعِيرِ، ثُمَّ قَالَ: " وَلَا يَحِلُّ لي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذَا إِلَّا الخُمُسُ، والخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ"[3] حدثنا موسى بن إسماعيل، قال حدثنا حماد، عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده في هذه القصة (قصة سؤال وفد هوازن أن يرد عليهم سبيهم) قال : فقال رسول الله ﷺ : " رُدُّوا عليهم نِسَاءَهُمْ وأَبْنَاءَهم، فمن مَسَكَ بِشَيْءٍ من هذا الفَيْءِ، فَإِنَّ لَهُ به علينا سِتَّ فَرَائِضَ من أَوَّلِ شَيْءٍ يُفِيئُهُ اللهُ عَلَيْنَا، ثُمَّ دَنَا – يعنى النبي ﷺ من بَعيرٍ، فَأَخَذ وَبَرَةً مِنْ سَنَامِهِ، ثم قال : يَا أيها النَّاسُ إِنَّه ليسَ لِي من هذا الفَيْءِ شَيْءٌ، وَلَا هذا – وَرَفَع أُصْبُعَيْهِ – إلا الخُمُسَ، والخُمُسُ مَرْدُودٌ عَليكُمْ، فَأَدُّوا الخِيَاطَ . و المِخْيَطَ " فقام رجل في يده كُبَّةٌ[4] من شَعْرٍ فقال أخذت هذه لأُصْلِحَ بها بَرْذَعَةً[5] لي، فقال رسول الله ﷺ : " أما ما كان لي ولبني عبد

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥ / ١٤١ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووى ت ٦٧٦هـ، ط٢: دار إحياء التراث العربي – بيروت :١٣٩٢هـ .

(٢) " وبرة" : شعرة من شعر البعير .

(٣) سنن أبي داود ٣ / ٨٢ كتاب الجهاد – باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء حديث رقم (٢٧٥٥) .

(٤) كُبَّةُ : بضم الكاف وتشديد الموحدة: أي قطعة مُكَبْكَبَةٌ من غَزْلِ شَعَر .

(٥) البرذعة : هي الحلس الذي يكون تحت رجل البعير اهـ مرفاة المفاتيح ٦/ ٢٥٩٥ .

المطلب فهو لك " فقال : أمّا إِذْ بَلَغَتْ مَا أَرَى لي قَلا أَرَبَ لي فيها ونبذها "[(١)].

الشـــاهد : في قوله ﷺ : " وَلَا يَحِلُّ لي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذَا إِلَّا الْخُمُسُ، والْخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ"

: " إِنَّه ليسَ لِي من هذا الفَيْءِ شَيْءٌ، وَلَا هذا – وَرَفَع أُصْبُعَيْهِ – إلا الْخُمُسَ "

المقـــام : تشديد حُرْمة الغلول، وتأكيد الحرمة .

أراد رسول الله ﷺ أن يبين مدى حرمة الغلول من الغنائم، فَلَفَتَ أنظار الصحابةِ رضوان الله عليهم بعدة أشياء، أولها أنه ﷺ بعد أن صَلَّى بالناس وَسَلَّمَ، وقد صَلَّى النبي ﷺ جَاعِلًا سُتْرَتَه بَعِيرًا، أخذ وَبَرَةً من جنب البعير، ثم نادى : يا أيها الناس، بطبيعة الحال خارجون من الصلاة في حال خشوع، أنظارهم متعلقة بسيدنا ﷺ وهو ﷺ يأخذ " وَبَرَةً " ويُنَادِيهم، ويرفع أصبعيه بالوبرة، ثم يعطيهم البيان : ليس لي من هذا الفيء شيء، ولا هذا – ورفع أصبعيه – إلا الخمس – الغرض تصوير حرمة الأخذ من الغنائم بدون وجه حق حتى ولو كان المأخوذ شيئا حقيرًا مثل هذه الشعرة، ولو كان الآخذ هو رسول الله ﷺ ولذلك كان التأثير في الصحابة في الحال الأمر الذي جعل رجلا، كان قد تساهل بأخذ قطعة غزل يصلح بها برذعة له، فعرض الأمر على رسول الله ﷺ فأكد له كلامه بأن الأمر ليس هينا فقال له : أماما يخص حقي وحق بني عبد المطلب في هذا الكبة فأنا أحله لك . ويفهم الرجل ما يلزم هذا الكلام، وهو : عليك أن تستحل بَاقِيَهَا من

(١) سنن أبي داود ٣ / ٦٣ كتاب الجهاد – باب في فداء الأسير بالمال حديث رقم (٢٦٩٤).

باقي الجيش، وهنا يدرك الرجل مدى أهمية الأمر، وشدة الحرمة فيه ويقول : " أما إذ بلغت ما أرى فلا أرب لي فيها، ونبذها " لا شك أن هذا البيان المحمدي بتصويره مدى الحرمة بهذا الشعرة التي لا تكاد ترى . قد أشعر الناس مدى صعوبة الأمر والتضييق فيه .

التمثيل بالنبات

(١) :" لو كان لي عدد هذه العضاه نعما... "

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال : أخبرني عمر بن محمد بن جبير بن مطعم، أن محمد بن جبير، قال : أخبرني جُبَيْر بن مُطْعِم : أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مَقْفَلَهُ من حُنَيْن، فَعَلِقَهُ النَّاسُ يسألونه حتى اضطرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ، فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَوقَفَ النبيُّ ﷺ فقال : " أَعْطُونِي رِدَائِي، لو كان لي عَدَدُ هذه العِضَاهِ[1] نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلًا، ولاَ كَذُوبًا، وَلَا جَبَانًا "[2] .

الشاهد في قوله ﷺ :" لو كان لي عَدَدُ هذه العِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ.

---

(١) " مَقْفَلَهُ " بفتح الميم وسكون القاف وفتح الفاء واللام مصدر ميمي أو اسم زمان أي : زمان رجوعه " حنين " واد بين مكة والطائف، " فعلقه " أي تعلقوا به، " سمرة " بفتح السين المهملة، وضم الميم، وهي شجرة من شجر البادية ذات شوك " فَخطِفَتْ " بكسر الطاء، أي علق شوكها بردائه الشريف، فجبذه، فهو مجاز؛ لأنه استعير لها الخطف " العِضَاه" بكسر العين وفتح الضاد، وبعد الألف هاء، وقفا، ووصلا، شجر كثير الشوك،" نَعَمًا " الإبل، أو البقر والغنم . إرشاد الساري ٥/ ٤ .

(٢) صحيح البخاري : ٤/ ٢٢ باب الشجاعة في الحرب والجبن (٢٨٢١) كتاب الجهاد والسير + صحيح البخاري : ٤ / ٩٤ + باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم (٣٠٣٨) كتاب فرض الخمس

المقـــام: الرد على إلحاف الأعراب في المسألة، حتى اضطروا سيدنا رسول الله ﷺ إلى أن يتحكك ركابه الشريف بشجرة شوك نزعت عنه رداه الشريف .

فِعْلُ الأعراب هذا لا يليق، فَنَزَّلَهُمْ سيدُنا رسول الله ﷺ مَنْزِلَةَ من يَسِمُه ﷺ فداه أبي وأمي، بالبخل، ولذلك فإنه ﷺ رَدَّ على سلوكهم هذا بتصوير مدى كَرَمِه وجُودِه وشَجَاعَتِه ، كيف ذلك ؟ يعني أنه ﷺ يقول لهم على سبيل الفرض والتقدير : لوكان لي مثل عدد هذه العِضَاه، يقصد ﷺ بالعضاه شوكها، لا الشجر نفسه لأن الذي يمثل الكثرة شوك هذه الشجرة، لا الشجر ذاته، لو كان لي عدد هذا الشوك نعما، أي إبلا وبقرًا وغنما، لقسمته بينكم، ولن أبخل به مع أن هذا المقسم ملكا لي (لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهْ الْعِضَاهِ) فكيف وهذه الغنائم لكم وسوف تقسم بينكم فَنَبَّه ﷺ بالطريق الأولى على أنه إذا كان لا يبخل بما هو له فكيف يبخل بما هو لهم، وبعد ذلك ينبه ﷺ بقوله : " ثُمَّ لَا تَجدُوني بخيلاً ولا كَذُوبًا " على تفاوت ما بين هذا العطاء لو كان وبين حقيقة صفاته من الكرم والجود والشجاعة، يعني أن هذا العطاء لا يعبر عن حقيقة صفاته ﷺ ؛ لأن صفاته أعلى بكثير من هذا العطاء حتى ولو كان بهذه المثابة من الكثرة وفي تفسير الجمع بين هذه الصفات ودلالة " ثم " يقول ابن المُنَيَّر السكندرى (ت ٦٨٣هـ) : " وفي جمعه عليه الصلاة والسلام بين هذه الصفات لطيفة وذلك لأنها متلازمة، وكذا أضدادها الصدق والكرم والشجاعة، وأصل المعنى هنا : الشجاعة، فإن الشجاع واثق من نفسه بالخَلَفِ من كسب سيفه فبالضرورة لا يبخل، وإذا سهل عليه العطاء، لا يكذب بالخُلْفِ في الوعد؛ لأن الخُلْفَ إنما ينشأ من البخل . وقوله : " لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهْ الْعِضَاهِ " تنبيه بطريق الأولى؛ لأنه إذا سمح بمال نفسه فَلَأَنْ يسمح

بقسم غَنائمهم عليهم أولى . واستعمال " ثُـمَّ " هنا بعدما تقدم ذكره ليس مخالفا لمقتضاها، وإن كان الكرم يتقدم العطاء، وليس المراد بـ" ثُمَّ " هنا الدلالة على تراخي العلم بالكرم عن العطاء . وإنما التراخي هنا لعلو رتبة الوصف .

كأنه قال:وأعلى من العطاء بما لا يتقارب أن يكون العطاء عن كرم" (١)

(٢) : تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق

حَدَّثَنا عَفَّانُ، حدثنا حمَّادُ بنُ سَلَمة، أخبرنا على بن زيد عن أبي عُثْمانِ، قال : كنت مع سلمان الفَارِسيِّ تَحتَ شَجَرةٍ، وَأَخَذ منها غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحاتَّ وَرَقُهُ، ثُمَّ قال : يَا أَبَا عُثْمَانَ، أَلَا تَسْأَلَنِي : لِمَ أَفعَلُ هَذا؟ قلتُ : وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ فقال : هكذا فَعَل بِي رسولُ الله ﷺ وَأَنَا مَعَه تَحْتَ شَجَرةٍ فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ . فَقَال : يَا سَلْمَانُ، أَلَا تَسْأَلُنِي : لِمَ أَفْعَلُ هَذا؟ قلتُ: وَلِمَ تَفْعَلُه؟ قَالَ: إِنَّ المُسْلِمَ إِذَا توضَّأَ فَأَحْسَن الوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصلواتِ الخَمسِ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ، كَما يَتَحاتُّ هَذَا الوَرَقُ" (٢) وَقَالَ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤] .

الشاهد في قوله ﷺ: " إِنَّ المُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَ صَلَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهَ كَمَا يَتَحاتُّ هَذَا الوَرَقُ".

قدم ﷺ بَيْنَ يَدَىْ بيانه الشريف فِعْلًا عَمَلِيًّا يُتَبِّهُ به سيدنا سلمان ﷺ حيث أخذ غصنا يابسا فَهَزَّهُ حتى تَحَاتَّ ورقه، يعنى تساقط وتهافت،

(١) إرشاد الساري ٥ / ٥٤ .
(٢) مسند الأمام أحمد ٣٩/ ١١١ (حديث سلمان الفارسي) .

ثم جذبه بهذا الخطاب : يَا سَلْمَانُ، أَلَا تَسْأَلُنِي : لِمَ أَفْعَلُ هَذا؟ فقال: وَلِمَ تَفْعَلُه؟ فأجابه ﷺ بعد أن أراه الصورة الماثلة للعِيَان في تساقط الورق : إن المسلم .... إلخ يعني ﷺ أن إحسان الوضوء مع المحافظة على الصلوات الخمس يسارع في محو الذنوب عن العبد وسرعة إزالتها عنه مع كثرتها كما تَسَاقَطَ هذا الورقُ وَتَهَافَتَ عن الغُصْن حينما هَزَّه سيدنا رسول الله ﷺ المقصود تشبيه سرعة زوال الذنوب عن العبد ومحوها عنه وسهولة العفو عنها بسرعة تساقط الورق عن الغصن اليابس وإن كثر ورقه، ولكن سيدنا رسول الله ﷺ أراه ذلك عيانا حتى يترسخ هذا المعنى في قلب المخاطب فيتأكد عنده وجوب المحافظة على إحسان الوضوء والصلاة وهذا المعنى قد أعاده سيدنا رسول الله ﷺ مع سيدنا أبي ذر ﷺ :

(٣): فتهافت عنه ذنوبه كما تهافت هذا الورق....

عن أبي ذر ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَج في زمن الشتاء، والوَرَقُ يَتَهَافَتُ، فَأَخَذَ بِغُصْنَيْنِ مِنْ شَجَرةٍ . قال : فَجَعل ذَلِكَ الَوَرقُ يَتَهافَتُ، فقال : يا أبا ذَرٍّ . قُلتُ : لَبَّيْكَ يا رَسُولَ الله . قال : إِنَّ العَبْدَ المُسلِمَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ يُرِيدُ بها وَجْهَ اللهِ فَتَهَافَتْ عنه ذُنُوبُه كَمَا تَهَافَتَ هَذَا الوَرَقُ عَنْ هَذهِ الشَّجَرَةِ- [(١)] رواه أحمد بإسناد حسن وفيه التشبيه ذاته بعد تقديم الفعل على القول في أخذ الغصنين وتهافت ورقهما لتقديم الصورة المشبه بها حتى يُرَى المقصودُ من البيان رَأْيَ العَيْنِ فيكونَ أكثر تأكيدًا وأشد تأثيرا، وهذا الفعل قبل القول قد جاء في سياق غير سياق الحديث عن فضل الصلاة، فجاء في حديث سيدنا أنس :

---

(١) الترغيب والترهيب ١ / ٢٤٨ (الترغيب في الصلاة مطلقا وفضل الركوع والسجود والخضوع) كتاب الصلاة وقد رواه أحمد والروياني، والضياء عن أبي ذر أهـ جامع الأحاديث ٢٣/ ٤١ حديث رقم (٢٥٥٢١) .

(٤): "لَتَسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ العَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ وَرَقُ هَذِه الشَّجَرةِ"

حدثنا محمد بن حُمَيد الرازي قال : حدثنا الفضل بن موسى، عن الأعمش، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ مَرَّ بشجرةٍ يابسةِ الوَرَقِ فَضَرَبها بعصَاهُ، فَتَنَاثَر الورق، فقال : " إن الحَمْدُ لله، وسبحانَ الله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، لَتُسَاقِطُ من ذُنُوبِ العَبْدِ كما تَسَاقَطَ وَرقُ هذه الشجرةِ ."[١]

الحديث هنا عن فصل الذكر والتسبيح والتحميد والتهليل، وأنَّها سريعة في محو الذنوب عن قائلها سرعة تساقط هذا الورق عن الغصن اليابس، وقد رأينا أن القول في الجميع يسبقه فِعْلٌ من رسول الله ﷺ يُحْدِثُ به الصورةَ الماثِلةَ في تناثر الورق وتهافته حتى يُشَبِّهَ بِهِ تَسَاقُطَ الذُّنُوبِ .

(٥) : من وجد شيئا فليأت به

روى عن سعد بن جُنَادَةَ ﷺ قال: لما فَرَغَ رسول الله ﷺ من حُنَيْن نزلنا قفراً من الأرض ليس فيها شيءٌ، فقال النبي ﷺ: اجْمَعُوا، مَنْ وَجَدَ شَيْئًا فلْيَأْتِ، وَمَنْ وَجَدَ عَظْمًا، أو سِنًّا فَلْيَأْتِ به، قَالَ : فَمَا كَانَ إلا سَاعَة حَتَّى جَعَلْنَاهُ رُكَامًا، فقال النبي ﷺ: أَتَرَوْنَ هذا؟ فكذلك تُجْمَعُ الذُّنُوبُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْكُمْ كَمَا جَمَعْتُمْ هذا . فَلْيَتَّقِ اللهَ رَجُلٌ، فلا يُذْنِبْ صَغِيرَةً، وَلَا كَبِيرَةً فَإِنَّهَا مُحْصَاةٌ عَلَيْهِ.[٢]

الشاهد في قوله ﷺ " أَتَرَوْنَ هذا؟ فكذلك تُجْمَعُ الذُّنُوبُ عَلَى الرَّجُلِ" الغرض تمثيل كثرة الذنوب وتراكمها عند عدم توقيها، فيجتمع صغيرها وكبيرها فيصير شيئًا عظيما هائلا، فهو يُشْبِه هذا الشيءَ الذي قد جمعه الصحابة في هذا المكان القفر الخالي الذي لم

---

(١) سنن الترمذي ٥ / ٥٤٤ - أبواب الدعوات – باب – حديث رقم (٣٥٣٣) .

(٢) الترغيب والترهيب ٣ / ٣١٢ كتاب الحدود وغيرها – الترغيب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

يكن به شيء وإذا بالصحابة - رضوان الله عليهم -كل واحد يأتي بشيء من هنا وهناك، كل واحد يأتي بما وجد، وإذا بهذا المكان الخالي – كان – قد صار فيه شيء ضخم، فكذلك الذنوب عندما لا يتورع الإنسان عن التَّقَحُّم في المخالفات، ولا يأبه بما يأتي يفاجأ بأنه قد أحاطت به الذنوب من كل جانب حتى أردته، ولذلك فإن سيدنا رسول الله ﷺ قال : فليتق الله رجل، فلا يذنب صغيرة ولا كبيرة؛ فإنها محصاة عليه .

التمثيل بهيئة اليد :

(١) : فُتِحَ اليَوم مِنْ رَدْمِ يأْجُوجُ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ

وعن زينب بنت جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ دَخَل عليها يوما فَزِعًا يقول : " لا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَب مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْم يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ " وَحَلَّقَ بأُصْبَعِهِ : الإِبْهَامَ والتي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ : فقلت : يا رسول الله ! أَفَنُهْلَكُ وَفِينَا الصَّالِحُون؟ قَالَ : " نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبثُ "[(١)] [متفق عليه] .

الشاهد في قوله ﷺ: فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه . صور رسول الله ﷺ مقدار ما فُتِحَ من سدِّ يأجوج ومأجوج بتحليقه بأصبعيه، وصنعه بهما دائرة صغيرة بأن جعل طرف سبابته اليمنى في أصل الإبهام وضمها مُحْكِمًا بحيث انطوت عقدة إبهامها حتى صارت كالحية المطوقة، والتعبير بالإشارة عن مقدار الفتح وهيئته، وتمثيله للتقريب، لا التحديد، وقد قيل إنهم يحفرون في كل يوم حتى لا يبقى

(١) حديث أم المؤمنين زينب جحش رواه البخاري في كتاب الأنبياء، وفي علامات النبوة ورواه مسلم في كتاب الفتن، ورواه الترمذي في كتاب الفتن وكذلك ابن ماجه ١٠هـ من ذخائر المواريث ٤ / ١٨٨ عبد الغني النابلسي : دار المعرفة، بيروت.

بينهم وبين أن يخرقوه إلا قليلا، فيقولون غدا نأتي، فيأتون إليه، فيجدونه عاد كما كان، فإذا جاء الوقت قالوا عند المساء : " غدا إن شاء الله "، فإذا أتوا ونقبوه خرجوا ... وقد شَبَّه المصطفى ﷺ قدر ما فُتح بصفة معروفة مرئية، يراها المخاطب . والغرض من الحديث التحذير من الغفلة مع الاستعداد لقرب يوم القيامة . وقوله ﷺ " ويل " معناه حلول الشر، والغرض منه التفجيع، وتخصيص " العرب " دون غيرهم؛ لأنهم كانوا معظم من أسلم، والمقصود من " الشر" هو خروج جيش يقاتل العرب . والغرض من الإخبار بالفتح الإشارة إلى قرب علامات الساعة والمقصود " بالخبث" الفسق، والفجور، والشرك، والكفور، وقيل معناه : الزنا.(١)

٢: " بُعِثْتُ والساعةُ كَهَاتَيْنِ "

حدثنا أحمدُ بن المِقْدَام، حدثنا الفُضَيل بن سلمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا سهل بن سعد ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ قال : بإِصْبَعَيْهِ هكذا، بالوسطى والتي تلي الإبهام" بُعِثْتُ والساعةُ كَهَاتَيْنِ" (٢).

حدثني زُهَيْر بنُ حَرْبٍ، حدثنا إسحاقُ بن عيسى، حدثنا مالك، عن ثَوْر بن زيد الدِّيلِي، قال : سمعت أبا الغَيْثِ، يحدث عن أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : كَافِلُ اليَتِيمِ لَهُ، أو لِغَيْرِه أَنَا وَهُوَ

(١) مرقاة المفاتيح ٨ / ٣٣٤٦- كتاب الفتن – باب البكاء والخوف – فيض القدير ٤ / ٤٢٢ عبد الرؤوف المناوى ت ١٠٣١هـ، ط١: المكتبة التجارية الكبرى ١٣٥٦هـ.

(٢) صحيح البخاري ٦ / ١٦٦ - كتاب تفسير القرآن – باب (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) حديث رقم (٤٩٣٦) .

كَهَاتَيْنِ فِي الجَنَّةِ" وأشار بالسبابة والوسطى[١].

حدثنا يونس، حدثنا حماد يعني ابن زيد، عن ثابت، عن أنس أو غيره، قال : قال رسول الله ﷺ : " مَنْ عَالَ ابْنَتَيْنِ، أَوْ ثَلاثَ بَنَاتٍ، أَوْ أُخْتَيْن أَو ثَلاثَ أَخَوَاتٍ، حَتَّى يَبِنَّ، أو يَمُوتَ عَنْهُنَّ، كُنْتُ أَنا وَهُوَ كَهَاتَيْن " وأشار بأصبعية السبابة والوسطى[٢].

حدثنا وَكِيعٌ، عن النَّهَّاسِ، عن شَدَّادٍ أَبِي عَمَّارٍ، عن عَوْفِ بن مَالِكٍ، قَالَ : قَالَ رسول لله : أَنا وامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ فِي الجنَّةِ، كَهَاتَيْنِ، امرأةٌ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا، فَحَبَسَتْ نَفَسَهَا عَلَىَ يَتَامَاهَا، حَتَّى بَانُوا، او مَاتُوا"[٣].

"بعثت والساعة كهاتين "

الشاهد في الإشارة بالأصبعين إلى قرب زمن القيامة، وقد قال القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ): هو تمثيل لمقاربتهما واتصال زمنه ﷺ بزمنها؛ وأنه ليس بينهما شيء، كما أنه ليس بينهما أصبع أخرى، ويحتمل أنه تمثيل لقرب ما بينهما من المدة كقرب السبابة والوسطى[٤]... وقيل : إن دينه متصل بقيام الساعة لا يفصله عنه دين آخر، كما لا لا فصل بين السبابة والوسطى . وقال القاضي : معناه أن نسبة تقدم بعثته على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الصبعين على الأخرى، وفيه إشعار بأنه لا نبي بينه وبينها، كما لا يتخلل أصبع بين هاتين الأصبعين

(١) صحيح مسلم ٤ / ٢٢٨٧- كتاب الزهد والرقائق – باب الإحسان إلى الأرملة .. إلخ . حديث رقم (٢٩٨٣) .
(٢) مسند أحمد ١٩/ ٤٨١ (مسند أنس بن مالك ﷺ حديث رقم (١٢٤٩٨) .
(٣) السابق ٣٩/ ٤٣٣ حديث عوف بن مالك الأشجعي حديث رقم (٢٤٠٠٨) .
(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣ / ٢٦٨ عياض بن موسى ت ٥٤٤هـ – تحقيق د . يحيى إسماعيل – دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ط١ : مصر ١٩٩٨م

. والغرض أن الإشارة كناية عن قرب الساعة [1].

(٣) " كافل اليتيم له، أو لغيره: " أنا وهو كهاتين في الجنة "

كافل اليتيم هو المربي له، أو القائم بأمره من نحو نفقة وتأديب وغير ذلك سواء كان هذا اليتيم قريبًا للكافل، أو كان أجنبيا عنه، أشار رسول الله ﷺ بإشارة الأصبعين إلى أن بين درجة النبي ﷺ وكافل اليتيم قَدْرَ تفاوت ما بيت السبابة والوسطى من القرب والالتصاق وكأنه لا تفاوت بينهما، وقد أشار الحكيم الترمذي " ت ٣٢٠هـ " إلى سبب علو الأجر في ذلك فقال : " إنما فاق هذا سائر الأعمال لأن اليتيم افتقد بِرَّ أبيه ولطفه ن وتعاهده، ومصالح أموره، والله تعالى وَلِيُّ ذلك كله يجريها على الأسباب فإذا قبض أبوه، فهو الولي لذلك اليتيم في جميع أموره يبتلى به عبيده لينظر أيهم يتولى ذلك ... فاليتيم كافله خالقه؛ لأنه قطع عنه من كان قيض له، وطوى عنه أسبابه، فمن مَدَّ يده إلى كفالته فإنما ذلك عمل يعمله عن الله تعالى، لا عن نفسه، كما أن الرسل عليهم السلام يعملون عن الله تعالى، ويؤدون عنه حججه إلى خلقه وبيانه، وهدايته، والذي يكفل اليتيم يؤدي عن الله تعالى ما تكفل به فلذلك صار بالقرب منه في الدرجة في ذلك الموقف، وليس في الجنة بقعة أروح ولا أطيب ولا أنور ولا آمن من البقعة التي يكون بها الرسل ـ عليهم السلام ـ[2].

---

(١) فيض القدير ٤ / ٥٤٢.

(٢) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ٢ / ٥٥ محمد بن على، الحكيم الترمذي ت ٣٢٠هـ - المحقق : عبد الرحمن عميرة – دار الجيل – بيروت .

التمثيل بالخط:

" هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به"

حدثنا صدقة بن الفضل، أخبرنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، قال حدثني أبي عن منذر، عن رَبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ : " خَطَّ النَبِيُ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وخَطَّ خَطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلى هٰذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ مِنْ جَانِبِه الَّذِي فِي الوَسَطِ فقال : هَذَا الإِنْسَانُ، وَهٰذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ – أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطَ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هٰذَا نَهَشَهُ هٰذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هٰذَا "(١).

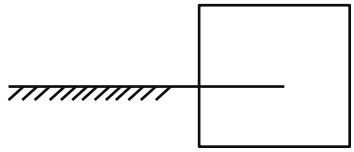

هذا الشكل هو أرجح صورة ذكر العلماء أن سياق الحديث يَتَنَزَّلُ عليها؛ إذا المقصود تصويرُ هيئةٍ تَمَثَّل حَالَةَ الإنسان وإحاطة الأجل به، مع خروج أمله وامتداده عن دائرة عمره، وهو فيما بين أمله الطويل الممتد وتوجيه الأعراض إليه، إن لم تصبه تلك الأعراض، فإنه ميت بأجله المحيط به قبل أن يبلغ أمله الخارج عن نطاق عمره، فقوله ﷺ : " هذا الإنسان " مبتدأ وخبر، أي هذا الخط هو الإنسان على سبيل التمثيل، " وهذا أجله محيط به " إشارة إلى المربع، " وهذا " الخط المستطيل المنفرد " الذي هو خارج " من وسط الخط المربع " أمله، وهذه الخُطَط الصعار " أي الشطبات التي في الخط الخارج من وسط المربع من أسفله، أو من أسفله وأعلاه " الأعراض " بالعين المهملة،

(١) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب في الأمل وطوله . ٨ / ٨٩ .

والضاد المعجمة، أي الآفات العارضة له، كمرض أو فَقْدِ مَال، أو غيرهما، والمراد بالخطوط المثال، لا عدد مخصوص معين، " فإن أخطأه " أي فإن تجاوز عنه " هذا " العرض، وسلم منه، " نهشه " بالشين المعجمة، أصابه وأخذه " هذا ـ وإن أخطأه هذا " العَرَضُ " نَهَشَه " أخذه " هذا " العرض الآخر، وهو الموت، فمن لم يمت بالسبب مات بالأجل .

والحاصل أن الإنسان يتعاطي الأمل، ويختلجه الأجل دون الأمل، وقد عبر عن إصابة الأعراض بـ " النهش " وهو لدغ ذوات السم مبالغة في الأخذ [1].

الخـــــاتمة

وبعـــدُ....

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٩ / ٢٤٠ (بتصرف) .

فهذه أبرز النتائج لدراسة الصورة الماثلة للعيان في البيان القرآني والبيان النبوي :

١- ندرة تلك الصورة في القرآن الكريم،حيث لم تتجاوزأربع صور.

٢- اتحاد مقامها في القرآن، وهو مقام كيفية إحياء الموتى .

٣- كثرتها في البيان القرآني بصورة ظاهرة، وكذلك :

٤- تنوع مقاماتها، حيث جاءت في تمثيل رحمة الله بأكثر من صورة، وتصوير حقارة الدنيا وتصوير سعة علم الله سبحانه وتعالى، وفي تمثيل عِظَمِ حُرْمَةِ اغتياب المسلم إلى غير ذلك من الصور المعروضة في البحث .

٥- تنوع التمثيل بالصورة في البيان النبوي ما بين التمثيل بالحيوان والإنسان والنبات وما يتصل بذلك من صور في البيئة، مع التمثيل بحركة اليد والخط على الأرض .

٦- كان ﷺ يُقَدِّمُ بين يَدَيِ الصُّورَةِ للتنبيه قَوْلًا يَلْفِتُ به المخاطب ويُوقِظُه وَقَدْ يَجْمَعُ بين القول والفعل كما في صور تمثيل محو الذنوب بتساقط ورق الشجر، وَأَخْذِهِ الغُصْنَ وَهزِّهِ مَعَ تَقْديمِ القَوْلِ .

المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا : المراجـــــع :

١- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري / أحمد بن محمد القسطلاني ت ٩٢٣هـ المطبعة الأميرية – مطر ١٣٢٣هـ .
٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : أبو السعود العمادي محمد بن محمد ت ٩٨٢هـ - دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٣- أسرار البلاغة – الشيخ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ت ٤٧١هـ قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر – دار المدني بجدة – الطبعة الأولى ١٩٩١م .
٤- الأعلام : خير الدين بن محمود الزركلي ت ١٣٩٦هـ - دار العلم للملايين – الطبعة الخامسة عشر – ٢٠٠٢م .
٥- إكمال المعلم بفوائد مسلم : عياض بن موسى، اليحصبي، أبو الفضل ت ٥٤٤هـ المحقق د . يحيي إسماعيل، ط١ دار الوفاء للطباعة:١٩٩٨م .
٦- تاج العروس من جواهر القاموس : محمد بن محمد، مرتضى الزبيدي ت١٢٠٥هـ - مجموعة من المحققين – دار الهداية .
٧- التبيان في البيان – الإمام الطيبي ت ٧٤٣هـ - تحقيق ودارسة د. عبد الستار حسين زموط، ط١ دار الجيل – بيروت : ١٩٩٦م .
٨- الترغيب والترهيب : عبد العظيم المنذري ت ٦٥٦هـ - ضبط أحاديثه مصطفى محمد عمارة، ط٣مصطفى الحلبي ١٩٦٨م .
٩- التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان – دكتور محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية :١٩٩٣م .

١٠- تفسير القرآن العظيم – عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ - تحقيق مجموعة – مكتبة الصفا – ٢٠٠٤م الطبعة الأولى .

١١- جامع البيان عن تأويل آى القرآن : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ حققه وعلق حواشيه محمود محمد شاكر – راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر،ط٢مكتبةابن تيمية القاهرة.

١٢- جامع المسانيد والسُّنن الهادي لأقوم سَنَن : إسماعيل بن عمر، ابن كثير ت ٧٧٤هـ - المحقق د. عبد الملك بن عبد الله الدهيش، دار خضر، بيروت، لبنان، ط٢: ١٩٩٨م .

١٣- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين : محمد على بن محمد بن علان الصديقي ت ١٠٥٧هـ اعتنى بها : خليل مأمون شيحا . دار المعرفة للطباعة – بيروت – لبنان ، ط٤: ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م .

١٤- ديوان الفرزدق شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ على فاعور – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٩٨٧م .

١٥- سنن أبي داود : أبو داود سليمان بن الأشعث ت ٢٧٥هـ المحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – صيدا – بيروت.

١٦- سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي ت ٢٧٩هـ - تحقيق وتعليق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض – مصطفى الحلبي – الطبعة الثانية ١٩٧٥م .

١٧- شرح ديوان أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي ت ٢٣١هـ : محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد على صبيح ط١: ١٩٦٧م.

١٨- صحيح البخاري (الجامع المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وأيامه) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي –

المحقق : محمد زهير بن ناصر الناصر دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط١ : ١٤٢٢هـ.

١٩- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ مسلم بن الحجاج ت ٢٦١هـ - المحقق محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٢٠- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح – أحمد بن على بن عبد الكافي بهاء الدين السبكي ت ٧٧٣هـ المحقق د . عبد الحميد هنداوي – المكتبة العصرية– بيروت / لبنان – ٢٠٠٣م .

٢١- عون المعبود شرح سنن أبي داود – محمد شمس الحق العظيم آبادي – تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان – المكتبة السلفية – الطبعة الثانية – ١٩٦٩م .

٢٢- الفردوس بمأثور الخطاب : شيرويه بن شهر دار، الديلمي ت ٥٠٩هـ - المحقق السعيد بن بسيوني زغلول – دار الكتب العلمية – بيروت - ط ١ : ١٩٨٦م .

٢٣- فيض القدير شرح الجامع الصغير : زين الدين محمد، عبد الرؤوف المناوي ت ١٠٣١هـ المكتبة التجارية الكبرى – مصر – الطبعة الأولى– ١٣٥٦هـ .

٢٤- اللباب في علوم الكتاب : عمر بن على بن عادل ت ٧٧٥هـ - المحقق عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٩٩٨م .

٢٥- المُخَلِّصِيَّاتَ : أبو طاهر المُخَلِّص محمد بن عبد الرحمن البغداادي الذهبي ن ٣٩٣هـ تحقيق نبيل سعد الدين جرَّار – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامين – قطر – الطبعة الأولى ٢٠٠٨م .

٢٦- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : على بن سلطان الهروي القاري ت ١٠١٤هـ – ط١ : دار الفكر، بيروت ٢٠٠٢م.

٢٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ت ٢٤١هـ – المحقق : شعيب الأرنؤوط – وآخرون – الرسالة – ط١ – ٢٠٠١م .

٢٨- مسند البزار(البحر الزخار) : أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزارت ٢٩٢هـ – تحقيق د.محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة ١٤٠٩هـ.

٢٩- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : أبو زكريا محيي الدين يحيي بن شرف النووى ت ٦٧٦هـ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ .

٣٠- النهاية في غريب الحديث : مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير ت ٦٠٦هـ – تحيقي طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحى – المكتبة العلمية – بيروت ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٣١- نوادر الأصول في أحاديث الرسول : محمد بن على، الحيكم الترمذي ت ٣٢٠هـ حققه : عبد الرحمن عميرة : دار الجبل، بيروت.